

✽ الجهود الفقهية للحافظ محمد أبي راس الناصر الجزائري (ت. 1238هـ)
وأثرها في حفظ المرجعية الدينية في الجزائر

The jurisprudential efforts of Al-Hafiz Muhammad Abi Ras
Al-Nasser Al-Jazaery (d. 1238 AH)
And its impact on preserving the religious reference in Algeria

كهد. الساسي حسناوي*

المفتشية العامة للتربية الوطنية، (الجزائر)

s.hasnaoui19@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/01/24 تاريخ القبول: 2023/02/15 تاريخ النشر: 2023/02/28

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تناول حياة وفقه أحد أعلام الجزائر في أواخر العصر العثماني من خلال جهوده الفقهية وأثرها في حفظ المرجعية الدينية في الجزائر؛ حيث تتطرق للتعريف به، وتناول جهوده الفقهية في التدريس والتأليف والقضاء والفتوى والمناظرات، وأثر ذلك كله في حفظ المرجعية الدينية في الجزائر، والمسلك الذي نهجه في ذلك، وواجبنا في توظيف كل ذلك في التمسك بمرجعيتنا الدينية، وحفظ وحدتنا المذهبية.

ومن أبرز النتائج التي خلص إليها الباحث؛ أن المذهب المالكي يتميز بمرونته واستيعابه للمذاهب الفقهية الأخرى بالنظر لأصوله التي قام عليها، وهي أصول المذهب المديني في صورته العامة، وابتناؤه على مراعاة الخلاف في صورته الخاصة، وأن حفظ المرجعية الدينية تنطلق من الثقافة المحلية التي ينبغي استحضارها سلوكا على الدوام للتمييز بما عليه المجتمع من خصوصيات تختلف عن المجتمعات الأخرى، وتعمل على إحداث التوازن النفسي للفرد والتماسك الاجتماعي للمجتمع، مع استجماع أسباب الثقافة العامة من باب الإثراء والتعارف والتواصل والتنافس وشحذ الأذهان،

* المؤلف المرسل

كما أنّ حفظ المرجعية الدينية يستدعي القيام بواجب الدفاع عن الوطن، فذلك أساسها المادي، ويستكمل بأساسها المعنوي القائم على أصل الدين الإسلامي، ويبرز سلوكا فيما استقر عليه العمل والتدوين فقها على مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك، وهو مذهب أهل المدينة القائم على صحة أصوله الشرعية، وهو ما استقر عليه العمل في المجتمع الجزائري طيلة قرون من الزمن.

الكلمات المفتاحية: أبو راس، أعلام الجزائر، المرجعية الدينية، الوحدة المذهبية، الفقه المالكي.

Abstract:

This study aims to address the life and jurisprudence of one of the flags of Algeria in the late Ottoman era through his jurisprudential efforts and its impact on preserving the religious reference in Algeria; Where it deals with introducing him, and dealing with his jurisprudential efforts in teaching, authorship, judiciary, fatwa and debates, and the impact of all of this on preserving the religious reference in Algeria, and the course he took in that, and our duty to employ all of this in adhering to our religious reference, and preserving our sectarian unity.

Among the most important findings of the researcher; that the Maliki school of thought is distinguished by its flexibility and its assimilation of other schools of jurisprudence in view of its foundations on which it is based, which are the origins of the Medina school of thought in its general form, and its construction on taking into account the dispute in its private form, and its construction on taking into account the dispute in its private form, and that preserving the religious reference stems from the local culture, which should always be evoked in behaviour to be distinguished by the characteristics of society that differ from other societies, and works to bring about the psychological balance of the individual and the social cohesion of the society, With gathering of the causes of general culture in terms of enrichment, acquaintance, communication, competition and sharpening of minds, Also, preserving the religious reference requires performing the duty of defending the homeland, for that is its material basis, and it completes its moral basis based on the origin of the Islamic religion, and it highlights a behaviour in what work and religiosity settled in jurisprudence according to the doctrine of the imam of Dar al-Hijrah, Imam Malik, and it is the doctrine of the people of Medina based on the validity of its legal origins, and this is settled him work in Algerian society for centuries.

Keywords: Abu Ras, Algerian flags, religious reference, doctrinal unity, Maliki jurisprudence.

مقدمة:

ارتبطت الجزائر في مرجعيتها الدينية من حيث فقه الفروع بالإمام مالك المعبر عن فقه أهل المدينة المنورة (الفقه المدني)، حيث جسّد علماء الجزائر هذا الفقه في التعليم والفتوى والقضاء والمناظرات، ومن هؤلاء العلماء مجدد القرن الثالث عشر الهجري¹ الحافظ أبو راس الناصر الجزائري الذي كانت له جهود فقهية تركت أثرها في إبراز هذه المرجعية والحفاظ عليها من خلال سلوكه العلمي والعملية، فكان ذلك علامة عليه في وصف انتمائه الجزائري للمذهب المالكي.

ومن هنا نتساءل: ما هي الجهود الفقهية التي بذلها الحافظ أبو راس الناصر الجزائري؟ وما هو أثرها في حفظ المرجعية الدينية في الجزائر؟ وماذا ينبغي علينا في توظيف كلّ ذلك في التمسك بمرجعيتنا الدينية، وحفظ وحدتنا المذهبية؟

وللإجابة على ذلك؛ قسمت بحثي إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة؛ أتناول في المبحث الأول التعريف بالحافظ محمد أبي راس الناصر الجزائري، وفي المبحث الثاني جهوده الفقهية، وفي المبحث الثالث: أثر جهوده الفقهية في حفظ المرجعية الدينية في الجزائر، وخاتمة في نتائج البحث واقتراحات الباحث.

وتكمن أهمية هذا البحث فيما يمثّله علماء الجزائر ومنهم الحافظ أبو راس الناصر الجزائري من منارات تُهتدي بها في حفظ مرجعيتنا الدينية ووحدة المذهبية، وألوية ذلك وضرورته في الوعي الديني والتماسك المجتمعي.

الدّراسات السابقة:

لا تذكر الجهود الفقهية للحافظ أبي راس ضمن الدّراسات التي تناولته غالبا إلا عَرَضاً؛ حيث ركّزت على الجوانب الأدبية والثقافية والتاريخية، فلم يبرز الجانب الفقهي بصورة واضحة من حيث الدراسة والبحث.

¹ الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي: عبد الرحمان دويب، 311/8، مجلد خاص بتحقيق كتاب "دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران"، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 سنة 2013م.

ومن الدراسات التي اقتربت في جانب منها في تناول الجهود الفقهية للحافظ أبي راس،

نذكر ما يلي:

1. الدراسة الأولى²: قراءة في تراث الشيخ أبي راس الناصري "المخطوط" كتاب "الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى" نموذجاً؛ حيث تناول أبو راس في هذا الكتاب نبذاً عن أربعة مباحث هي التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى، وهي القضايا نفسها التي أجمع عليها المغاربة في صياغة تديّتهم، وهو جوهر ما أكد عليه الإمام ابن عاشر الأندلسي (ت. 1040هـ/1630م) صاحب كتاب "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" المعروف اختصاراً بمتن ابن عاشر، والذي يؤكد على التزواج بين التصوف المعتدل على طريقة الجنيد والفقهاء المالكي والعقيدة الأشعرية، وقد تناول أبو راس في المبحث الرابع العديد من الفتاوى الصادرة عن مشاهير علماء معاصرين له وآخرين متقدمين عليه، وأخرى طرحت عليه؛ حيث أكثر من إثبات فتاوى الشيخ عبد القادر بن يوسف الفاسي (ت. 1091هـ/1680م).

ويخلص صاحب البحث في خاتمة بحثه إلى أن مباحث هذا الكتاب هو تقييد وليس تبييضاً نهائياً، والفراغات ما زالت فيه كثيرة، ومسائله بحاجة إلى مراجعة وتنقيح.

2. الدراسة الثانية³ تتناول أيضاً الكتاب نفسه تحت عنوان: منهجية الشيخ الإمام أبي راس الناصري في الفتاوى من خلال كتابه "الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والفتاوى"، ونلاحظ في العنوان حذفاً لكلمة "الأولياء"، وقد يكون ذلك سهواً من الباحث الذي نبذه يثبتها في متن بحثه، ويرى أن أبا راس فقيه أثر ونظر، إلا أنه لم تظهر شخصيته كما يجب في كتابه الحاوي؛ الذي هو عبارة عن مسودة لم تصحح وتنقح، وفيها بتر في نهايتها، حيث جمع أبو راس في كتابه الحاوي ثلاثة فنون، كل فن له منهجه الخاص به؛ الأول متعلق بالعقائد وعلم الكلام، والثاني متعلق بالتصوف والتزكية والأولياء، والثالث متعلق بالفقه؛ ومسائله كثيرة.

² قراءة في تراث الشيخ أبي راس الناصري "المخطوط" كتاب "الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى" نموذجاً: بلبشير عمر، المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 16، عدد خاص، ص 74_101، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2020/12/31.

³ منهجية الشيخ الإمام أبي راس الناصري في الفتاوى من خلال كتابه "الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والفتاوى": رزاق حبيب، مجلة الحضارة الإسلامية؛ المجلد 12، عدد 1، ص 111_135، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2011/03/27.

وكان من منهجه في الفتوى؛ قول لا أدري فيما لا يعلم، وإنصاف المخالف والتماس العذر له، ومبدأ التثبت والتحرّي، ومبدأ الموازنة والتخريج على المدونات الفقهية المعتمدة، وأن لكل فتوى دليلها، وذكر جواب من سبقه بالجواب في المسألة إن كانت المسألة نفسها؛ لذلك نجد أكثر من النقل عن عبد القادر الفاسي في ذلك، فكانت هذه النقول عمدة هذا الكتاب، والثناء على من ينقل عنهم، وقراءة الواقع وفهمه، وإعمال مبدأ سد الذرائع، والتيسير ورفع الحرج في الفتوى، ومراعاة الخلاف، ومناقشة المخالف والأخذ بيده، ورعاية الحاكم والقاضي في مسألة الفتوى وعدم الخروج على فقه المذاهب الأربعة والمشهور من المذهب المالكي.

ويخلص صاحب البحث إلى أن أبا راس في الجزائر كالسيوطي في مصر، ينبغي الاهتمام بكتبه وإخراجها حتى لا يضيع علم هذا الرجل العالم الرباني المنصف، المشارك في الحياة العامة للرعية والحياة الخاصة للحكام، مما ساعده على فهم الواقع وتنزيل الحكم الشرعي صحيحا، فبعلمه وفهمه نقح المناط للأحكام وحقّقها.

3. الدراسة الثالثة⁴: "قراءة في مناظرة الشيخ أبي راس الناصري الجزائري لبعض علماء الوهابية في موسم حج عام 1811م"؛ وهي قراءة تاريخية تحليلية، إلا أنها تتناول مسائل ترجع في أساسها إلى المرجعية الدينية، حيث أرسل السلطان سليمان العلوي رسالة ووفدا رسميا إلى الأمير سعود بن عبد العزيز من أجل الاطلاع على أصول الوهابية، واستئناف حركة الحج، وإضعاف العثمانيين بالتحالف مع أعدائهم السعوديين بعد تمكّن هؤلاء من الاستيلاء على الحجاز، إلا أنّ الاختلافات ظلت قائمة، حيث أظهرت مناظرة أبي راس درجة التباين الجوهرية حول مسألة صلاة القصر، واستخدام السبحة، وقراءة كتاب دلائل الخيرات، وهدم الوهابيين للمقدسات...

ورغم الطابع الدبلوماسي لرسالة السلطان سليمان إلا أنها عززت موقف أبي راس في رفض الطرح الوهابي القائم على التكفير وتخويف الحجاج وتهدم المقدسات، وأتت بالمقابل على جهود الوهابيين في محاربة الانحرافات.

وقد ختم أبو راس مناظرته بالحكم على منهج الوهابيين حينما اعتبرهم خارجين عن المذاهب السنية في الفروع، أما في العقيدة فهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

⁴ قراءة في مناظرة الشيخ أبي راس الناصري الجزائري لبعض علماء الوهابية في موسم حج عام 1811م: فريقي محمد الكبير، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مجلد 11، عدد 2، ص 106-128، جامعة معسكر، 16 / 03 / 2021.

ويكتسي موقف أبي راس من الدعوة الوهابية أهمية خاصة باعتباره مؤرخا وفقهيا ومحدثا جامعا لمختلف العلوم، ويعكس موقفه بطريقة غير مباشرة موقف النخبة الجزائرية والمغربية عموما من الطرح الوهابي في بداية القرن التاسع عشر.

وقد تزامن موقف أبي راس مع ردود جملة من علماء تونس والمغرب الأقصى على الرسائل الوهابية الواردة إلى بلدان المغرب عبر أركاب الحجاج، عبّروا فيها عن موقفهم من الطرح السلفي الوهابي في مقابل تصوّره للفكرة السلفية وفق مرتكزاتها الثلاثة بالغرب الإسلامي؛ العقيدة الأشعرية، المذهب المالكي، التصوّف السني.

وكلما قدّم الوهابيون دليلا واجههم المخالفون بأدلة موازية أو أقوى منها، على نحو ما حدث مع أبي راس، كما أن التجديد الوهابي أفضى إلى التحجّر وضيق الأفق، بحيث ظلت تحوم حول أفكار ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

ولم تكن اجتهادات الوهابيين فيما استجد من أحوال المسلمين بل كوّنت المعارك الكلامية والفقهية السابقة، وشغلت بها المسلمين مرة أخرى، واهتمتهم في عقائدهم، وزعمت أنهم عادوا إلى الجاهلية الأولى من خلال توسّلهم بالأنبياء والصالحين.

وقد كانت ردود المخالفين لهم تثبت أن الوهابيين لم يلتزموا المذهب الحنبلي حتى في الأصول والعقائد، وأجمعت ردود المغاربة على رفض الطرح العقدي الوهابي بما في ذلك رسالة السلطان سليمان العلوي ذات الطابع الدبلوماسي، وكذلك مناظرة أبي راس التي غمرتها تلك الظروف الدعائية.

وهذا على خلاف ما سعى إليه المفكر عبد الحليم عويس من تطويع الأحداث التاريخية وإخراجها عن سياقها من أجل الانتصار للوهابية، ومحاولة التأصيل لتجذرها في تاريخ المغرب العربي الحديث، والادّعاء أن أبا راس كان أول من حمل الدعوة الوهابية للجزائر بعد اقتناعه بها، ومشيدا بآراء ابن عبد الوهاب ودوّن ذلك في رحلته.

وهو كلام فيه مغالطات وتشويه للحقائق، فإن ما سجّله أبو راس في رحلته هو مناظرة تسعة من علمائهم وصفهم بأنهم "علماء أكابر"، وناقشهم في مسائل، فرجعوا عن بعض آرائهم وأصروا على مواقفهم في مسائل أخرى، وحكم أنهم متمسكون بالمذهب الحنبلي في الأصول وخارجون عنه في الفروع، فهو نقل أخبار الوهابية وأفكارها دون أن يقتنع بها، بل ينطلق من مبدأ

رفض التعاليم الوهابية، فهو لا يتفق مع علماء الوهابية في جملة المسائل التي أنكروا المخالفون عليهم مثل هدم المشاهد ونحوها، وكل هذا عكس ما توهمه المفكر عبد الحليم عويس.

ويخلص صاحب البحث إلى أن مناظرة أبي راس لعلماء الوهابية في ذلك الظرف التاريخي العصيب تكتسي أهمية خاصة؛ لأن أبا راس كان من أكثر علماء الجزائر نبوغا وإطلاعا، وأشدّهم جرأة للتصدي للقضايا الشائكة، ولذلك كان من أقدّهم على مواجهة تعصّب الوهابيين وتشدّدهم ونزعتهم الوثوقية باعتباره من الجهابذة والموسوعيين في العلوم الشرعية، ويمثّل المرجعية الدينية في الجزائر وبلدان المغرب العربي بأبعادها الثلاثة: الأشعرية، المالكية، التصوّف السني، والتي لطالما كرسها أبو راس في مؤلفاته ومناظراته.

كما كان الموقف المبدئي للجزائريين وللمغاربة من الوهابية هو الرفض؛ لأن الطرح الوهابي يصطدم مع المرجعية الدينية المغاربية في الكثير من الأصول والفروع، ولذلك أجمعت الردود على رفضها رغم الإشادة التي أبداها بعض المغاربة بسلوكيات حكام وعلماء الوهابية فيما يتعلق بالصرامة في تطبيق الشعائر الدينية ومحاربة البدع والخرافات.

وقد حرص أبو راس على عدم إخراج الوهابيين من الدائرة السنّية رغم الاختلافات الجوهرية الحاصلة، وهذا يعكس وعي أبي راس والنخبة الجزائرية بخطورة الوضع الذي كان يعيشه العالم الإسلامي في ظل السلطنة العثمانية التي ضعفت، ولم تعد قادرة على مسيرة التّطور الأوروبي، فأصبح من الضّروري تجاوز تلك الخلافات التي لم تكن مناسبة لتلك اللحظة التاريخية.

4. الدراسة الرابعة⁵ التي جمعت بين المنهج والمرجعية في الجواب الفقهي عند الحافظ أبي راس: "الحافظ أبو راس الناصري الجزائري وأجوبته الفقهية من خلال كتابه فتح الإله ومنتته، دراسة فقهية في المنهج والمرجعية"؛ حيث نقف على منهجية أبي راس ومرجعياته في تقرير أجوبته الفقهية؛ فالأول منهج الاقتصار على الجواب المباشر المستند إلى وحدة مرجعية المذهب المالكي في استحضار أقوال أئمة المذهب المالكي، معتبرا أقوالهم دليلا في حق من يجيبهم؛ فذلك هو مذهبهم، فالمذهب السائد هو المذهب المالكي، فينبغي الحرص أن يُفتى به حفاظا على المرجعية الفقهية للجزائر، والآخر منهج عرض الخلاف المذهبي ومرجعية تعدد المذاهب الفقهية (المذاهب الأربعة)،

⁵ الحافظ أبو راس الناصري الجزائري وأجوبته الفقهية من خلال كتابه فتح الإله ومنتته، دراسة فقهية في المنهج والمرجعية: الساسي حسناوي، مجلة الشريعة والاقتصاد، مجلد 4 عدد 7، ص 349-390، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 01/06/2015.

فيتناول الآراء الفقهية بأدلتها ثم يقوم بالترجيح دون أن ينقض الرأي المرجوح، وأحيانا يتراجع عن رأيه الأول بعد البحث والتنقيب في المسألة، ويكيّف أجوبته حسب مقتضى الحال من حيث المكان ومن حيث السائل المقصود بالجواب، فيحدد بذلك مقاصد جوابه؛ ليقع الموقع المناسب له، فإن كان المكان يغلب عليه الفقه المالكي وكان المعني بالجواب مالكي المذهب كان ذلك كافيا في فهم مطلوب صاحبه، فيجيبه بمقتضى ذلك، مستدلا بأقوال أئمة المذهب، وإن كان الأمر غير ذلك، فإنه يعرض لخلاف الآراء في المسألة مع الترجيح لما يراه مع دعمه بالأدلة على ذلك، ولكن الغالب في أجوبته اقتصارها في هذه الحالة على مذهبين فقهيين؛ المذهب المالكي والمذهب الحنفي، وذلك بحكم أن المذهب المالكي هو السائد في دول المغرب العربي، وأما المذهب الحنفي فهو المذهب الرسمي للدولة العثمانية، فنجده يستدل بفتاوى مفتي هذه الدولة وعالم اسطنبول الشيخ أبي السعود، فضلا عن استدلاله بعلماء آخرين.

ويخلص صاحب البحث إلى أن أبا راس قد بلغ مرتبة عالية في العلم والفقه في الدين من خلال منهج أجوبته، وجمعه بين الفقه وواقع حال سائله أو مناظره والمذهب المنتسب إليه، فيحفظ بذلك عليه مرجعيته الفقهية، وتوازنه الذهني، واستقراره النفسي والاجتماعي.

1. التعريف بالمحافظ محمد أبي راس الناصر الجزائري:

المحافظ أبو راس سليل أسرة عريقة في العلم والصلاح؛ أئمة في العلم وأقطاب في التزكية "أغنياء من التقوى فقراء من الإثم" - كما يقول عن أحد أجداده-، فهو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، ويتصل نسبه إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ⁶.

وُلد المحافظ أبو راس قُرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري، ثم توجّه به والده إلى سهل متيجة⁷ قرب عاصمة الجزائر، وهناك فُقد والدته وهو صغير، فعاد والده إلى حوز مجاجة، واشتغل هناك بقراءة القرآن وتعليم الصبيان، وتزوج عدة زوجات حتى وافاه الأجل، فدفن بمكان يُعرف بأُم الدروع، وبذلك فقد أبو راس والده وهو طفل، وقد كفله أخوه عبد القادر الذي توجّه به إلى المغرب⁸ حيث حفظ أبو راس القرآن الكريم، ويروي عن نفسه أنه عاش حياة يُتم وفقر شديد، وكانت له أخت تسمى حليلة، روى عنها بعض الأخبار، وأما والدته فتدعى زولة، وكانت من بيت علم وصلاح.

ولكن أبا راس لم يلبث أن عاد إلى معسكر، فالتقى هناك بالشيخ عبد القادر المشرفي⁹ الذي كانت له شهرة علمية واسعة، فتلمذ أبو راس عليه، وعندما شعر بشيء من الاستقلال العلمي خرج إلى جوار معسكر عند أخيه، واشتغل بالتدريس وتولّى القضاء. واستمر على هذه الحال حوالي سنتين، إلى أن أحس بضعف معلوماته، وتيقن أن البادية تضعف العلم، فغادرها إلى معسكر حيث مكث ستا وثلاثين سنة، وهو يُمارس مهنة التدريس.

⁶ فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته: أبو راس الجزائري، ص25، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

⁷ متيجة: اسم لأراض خصبة، تقع حول مدينة الجزائر. أ: المرجع نفسه ص 33(الهامش).¹

⁸ المغرب: أي غرب القطر الجزائري مثل إقليم معسكر ووهران. أنظر: المرجع نفسه.

⁹ هو أبو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن جلال المشرفي الغريسي ثم العسكري، أخذ عن فطاحل العلماء من المغرب والمشرق وأحازوه. وتوفي سنة 1192هـ_أكتوبر 1778م، ومن تأليفه رسالة سماها: "بحة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من أعراب بني عامر" التي اعتنى بتحقيقها ونشرها محقق كتاب "فتح الإله" الدكتور محمد بن عبد الكريم. أنظر: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر: محمد شاوش والغوثنى بن حمدان 104/3، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م. المرجع نفسه ص34 (الهامش).

وقد اشتهر أمره بين الناس في داخل الجزائر وفي خارجها، وبلغ من شهرته أن اجتمع عليه أكثر من 780 طالبا، وهذا ما جعل أمراء البلاد يخصصون له كرسيًا يستعين به على الدرس لازدحام الناس عليه، وقد رشّحه شيخه عبد القادر المشرفي ليكون خليفة له في الدرس، وكفّوه حاجاته من المؤنة والدراهم.

وفي سنة 1204هـ ذهب للحج لأول مرة، والتقى في طريقه بعلماء الجزائر¹⁰ وقسنطينة¹¹، وتونس ومصر والحرمين والشام، وأثناء عودته سنة 1205هـ سمع وهو في تونس بالحرب بين المسلمين والأسبان على وهران فأسرع بالعودة والاشتراك في الجهاد، وبدأ أثناء ذلك يؤلف كتابه (عجائب الأسفار) الذي انتهى منه في السنة الموالية 1206هـ. وقد تقلّد بعدها وظائف الفتيا والقضاء والخطابة، ولكنه عزل منها لأسباب لم يذكرها¹² سنة 1211هـ، فاشتغل بالتأليف.

ثم توجه إلى المغرب ووفد على السلطان مولاي سليمان¹³ واشتهر أمره بفاس ولقبه علماؤها بـ"الحافظ"، وقد رغبه السلطان في البقاء هناك ولكنه اعتذر.

ولم يكد يطمئن حتى وقعت حروب درقاوة وحلّ بالجزائر الطاعون، فعانى أبو راس من الجوع والنكبات ما ظهر على صحته ونفسه، فاعتزل الناس وترك الكتب والتأليف، وقال بهذا الصدد: "ولو لم يكن إلا سكاني حاضرة كبادية، فناهيك من معذرة بادية، ولاسيما من اشتد فيها عسره، ولم يُسعفه دهره، فكيف يرتفع ذهنه إلى التصنيف، أو أمله إلى وضع تأليف"¹⁴، وضاق بالناس حتى قال فيهم:

¹⁰ الجزائر: كان القدامى يسمونها "جزائر بني مزغنة"، أصبحت عاصمة المغرب الأوسط الذي حمل اسمها أيضا بعد ذلك. _انظر: تاريخ مدينة الجزائر: د. أحمد السليماني ص 6_7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989م.

¹¹ قسنطينة: مدينة قديمة مشهورة في شرق الجزائر.

¹² ذكر بعضهم أن ذلك كان بسبب وشاية بعض الحساد، فضاقت حاله واضطر إلى الهجرة. _ انظر: إرشاد الحائر 125/3.

¹³ هو أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي، سلطان المغرب الأقصى، بويغ بفاس سنة 1206هـ (1791م) وتوفي بـ"مراكش" سنة 1231هـ (1816م). _ انظر: فتح الإله ومنته ص 37(الهامش).

¹⁴ نجد الشكوى ذاتها عند معاصره الشيخ عبد العزيز النعميني صاحب "النيل" في الفقه الأباضي قائلا: "اختلفت لجمعه من أثناء الأيام فرصا، مع ما أكابد وأتجرح من الزمان غصصا... في أيام دهش وتموج فنن، على عجل وتتابع محن". _انظر: تاريخ الجزائر الثقافي: د. أبو القاسم سعد الله، 81/2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ_1981م.

"الناس داء عضال، لا يتخلص منهم على كل حال، سهامهم مسمومة، وتخلق أكثرهم مذمومة، لا ينظرون بعين الإنصاف، ولا يملّون من الانتقاد والخلاف، يسقون من أفواههم العسل، وفي قلوبهم السم الزعاف"¹⁵، ثم عاد إليه إذ لم يستطع الابتعاد عن التأليف والتدريس.

وتاقت نفسه إلى الحج مرة أخرى لعله يتنفس من الضيق الذي كان فيه، فحج سنة 1226هـ، ولم يعد إلا في السنة الموالية، ولاشك أن هذه الحجة قد عادت عليه بفائدة علمية كبيرة بعد عشرين سنة قضاها بعيدا عن الاتصال بعلماء المشرق، وفيهم علماء مصر وتونس¹⁶.

وقد كان أبو راس كثير الاطلاع، ويعتبر من أهم المؤلفين في الجزائر العثمانية، وأن تنوع موضوعات كتبه يدل على تنوع ثقافته وغزارة مادته¹⁷، فقد كتب في التفسير ورسم القرآن والحديث والأسانيد والفقه والأصول والمذاهب الفقهية والتوحيد والتصوف والنحو والبيان والمنطق واللغة والأدب، وله قصائد في أغراض شتى؛ أهمها التاريخ والمدح، كما اعتنى بعلم الأنساب، إذ يُعتبر "من كبار النسابة"¹⁸، كما كان أيضا "على رأس المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية"¹⁹.

توفي أبو راس الناصر سنة 1823م عن عمر يناهز التسعين سنة، و"صلى على جنازته السيد أحمد الدايجي، ودفن ب"عقبة بابا علي" بضواحي معسكر، فنُسب إليها منذ ذلك الحين"²⁰.

¹⁵ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الثقافي: الدكتور أبو القاسم سعد الله، 87/1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة 2007م.

¹⁶ المرجع نفسه 87/1-88.

¹⁷ قال عنه تلميذه ابن السنوسي بأنه كان متقنا لجميع العلوم، عارفا بالمذاهب الأربعة، لا يسأل عن مسألة إلا يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه، وقال عنه أيضا بأنه كان لا يراجع الدرس سوى مرة واحدة. أما تلميذه أبو حامد المشرقي فقد شبهه بأسد بن القرات في الفقه المالكي. وقال عنه أنه ألف في سائر الفنون. _نظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر 93/1، نقلا عن: ذخيرة الأواخر والأول ص8 (مخطوط).

¹⁸ المرجع نفسه 93/1.

¹⁹ تاريخ الجزائر الثقافي 376/2.

²⁰ مقدمة محقق كتابه "فتح الإله ومنته" ص12.

2. الجهود الفقهية للحافظ محمد أبي راس الناصر الجزائري:

إن الناظر في الجهود العلمية عامة والفقهية خاصة التي بذلها الحافظ أبو راس يقف على شخصية موسوعية في ذلك مع مكانة بارزة بين علماء عصره داخل الجزائر وخارجها، دلت عليها مناظراته العلمية وأجوبته الفقهية وتأليفه في كل التخصصات تقريبا التي تضاهي أو تفوق آثار أحمد المقرري في أهميتها²¹، كما انتصب للتدريس والفتيا، وتقلد القضاء.

2. 1. في التدريس والتأليف:

أتقن الحافظ أبو راس القرآن بأحكامه ثم قرأ الفقه على فقهاء معسكر، وقد انتفع به كثير من الطلبة في الأحكام، ودرّسها لهم، ثم سافر على صغره (أول صومه) إلى مازونة²² للتعلم في قراءة الفقه على يد شيوخها؛ حيث تمكن من الإمام بمختصر خليل، وصار في عامه الأول يقرأ للطلبة الفرائض، وفي العام الثاني بعض أجزاء المختصر، وفي العام الثالث صار من المتقدمين المتمكنين فيه، واشتهر بذلك في أكثر من مكان، فإذا ذكرت مازونة ذكر من فقهاؤها وأعلامها، ثم رحل إلى معسكر، فتتلمذ على يد الشيخ المشرفي، وبرز عنده رغم صغر سنه، حيث ناظر أحد الطلبة وظهر عليه، وقد أعذره الشيخ المشرفي فيما يأخذه عليه الطلبة من لحنه في الكلام بقوله: "هذه عادة طلبة مازونة"²³.

ثم انخرط في التدريس، وداوم عليه ستا وثلاثين سنة متصلة، وكانت طريقته في تدريسه بتقسيم العام على ثماني مراحل، ينتهي في كل مرحلة من تدريس المختصر²⁴، وجمعها كلها سردا في أول الخريف، فجلب بطريقته هذه عددا كثيرا من الطلبة، حتى اجتمع عنده في بعض السنين سبعمائة وثمانون طالبا، فتدخل البايات لما علموا كثرة الطلبة وازدحامهم عنده، فعملوا له كرسيًا للاستعانة به على الدرس غاية الاستعانة.

²¹ أبو القاسم سعد الله في تصديره لكتاب "فتح الإله ومنته"

²² مازونة: مدينة صغيرة على بعد نحو 60 كم غربي الشلف، اشتهرت في العصور السابقة بنشاط ثقافي كبير، وكانت مقر بايات الولاية الغربية في فترة من فترات العهد العثماني، ويُعدّ أبو راس من أهمّ خزيجي مدرستها التي كانت تنافس تلمسان في الفقه.

²³ فتح الإله ومنته، ص 21.

²⁴ سيطر مختصر خليل على مختلف الدراسات الفقهية المالكية في الجزائر، فكان في المقام الثالث بعد القرآن وصحيح البخاري، كما كان مصدرا

للتبرك. أنظر: تاريخ الجزائر النقائي 71/2.

وهذا فضلا عن تدريسه تحقيقا وتدقيقا للمختصر من حافظته دون أن يحمل كتابا في ذلك؛ لأن "شأن العلم أن يُحفظ"²⁵، فيذكر بعض التتّمات واللطائف والتّوجيهات والتّذييل للمسائل، مع ترتيبها ترتيبا مبتكرا، مع النظر في اعتراضات الطلبة ومناقشاتهم، كما يذكر في نايها دروسه "حكايات ونوادير لتنشيط القلوب الفواتر"²⁶، فاشتهرت هذه الطريقة في دروس مصر والشام وتونس والعراق.

ولم يقتصر في تدريسه على الفقه فقط، وإنما أكثر من تدريس الألفية بشرح البهجة المرضية وغيرها في آخر القرن الثاني عشر الهجري، ولسان حاله قول الشاعر:

فعلّم ما استطعت لعلّ جيلا سيأتي يُحدّث العجب العجبا

ومن الأمور الملفتة للانتباه أن يكون تلميذا وشيخا في آن واحد²⁷، إلا أن أبا راس ينفي الغرابة في ذلك بما يستشهد به من سلوك بعض كبار العلماء المحققين في هذا الشأن²⁸، ولعل ذلك ما جعله لا يستنكف أن يقرأ على الكثير من العلماء في مختلف فنون المعرفة رغم مكانته العلمية وشهرته، ولم يكن في ذلك فريدا فيه، فقد ذكر لنا في كتابه "فتح الإله" بعض النماذج لعلماء آخرين من عصره يكون أحدهم بارزا في علم فيجلس ليزداد علما فيه أو يتعلم علما آخر، ولا يرى في ذلك غضاضة، فإن عزة العلم تُدل لها النفوس.

وفي باب التأليف يذكر الحافظ أبو راس في الباب الخامس من كتابه "فتح الإله" جملة من تأليفه مرتبة حسب موضوعاتها ومادتها، حيث يعتبر نفسه كثير التأليف، ولم يُفقه في ذلك سوى السيوطي، وقد ذكر بعضهم أن تأليفه تكاد تزيد على عدد أيامه، وحددها أحد تلامذته بأنها تزيد على الخمسين كتابا²⁹، وقيل إن عددها بلغ 134 مؤلفا³⁰.

²⁵ فتح الإله ومنته، ص23. اعتمد التدريس في الفقه على التقليد والتكرار، فكان الإملاء والتأليف عبارة عن شرح وحاشية، وهو مرض العلم في العصر كله.

_انظر: تاريخ الجزائر الثّقاني 70/2.

²⁶ فتح الإله ومنته، ص22.

²⁷ انظر: المرجع نفسه، ص65_73.

²⁸ المرجع نفسه ص73.

²⁹ فهرس الفهارس: الكتاني 105/1، نقل عن ابن السنوسي، أحد تلاميذ أبي راس، أما أبو حامد المشرقي فقد قال أن تأليفه أوشكت أن تزيد على عدد أيامه.

أنظر: أبحاث وآراء 91/1، نقل عن: ذخيرة الأواخر والأوائل، مخطوط، ص8.

³⁰ إرشاد الحائر 125/3.

وقد استحسّن الشيخ إبراهيم الرياحي³¹ تأليفه، فأنشد قصائد في مدحها، ختمها بقوله³²:

لا خير للدهر إلا أن تكن به يا من به خُتمت للعلم خِلاّن

وهذه المؤلفات العديدة التي يشتمل بعضها على مجلدات قد ضاع الكثير منها، وما بقي منها لا يزال مخطوطا ومهملا في زوايا المكتبات العامة والخاصة، وما طبع منها إلا القليل³³.
ويذكر الحافظ أبو راس أن تصانيفه قد أتم بعضها، وشرع في بعضها ولم يكمله، كما يأمل في تأليف أخرى منها شرحًا للبخاري، ويدعو الله الخلف فيما ضاع من بعض مؤلفاته قبل تسويدها.

وما كان يأمله أبو راس من وضع تأليف في شرح صحيح البخاري بشكل خاص، قد يرجع سببه إلى "أن أهل الجزائر لهم ولوع برواية البخاري، والمشاهير من علمائهم يقرؤونه دراية، ويتدثرون قراءته من أوله إلى آخره مدة ثلاثة أشهر، من اليوم الأول من رجب، ويختمونه في أواخر رمضان على وفق المراد، فيكون الختم على بابه"³⁴، فكانوا يعتنون بختم صحيح البخاري في شهر رمضان في أغلب المساجد، فقد كانت روايته عندهم أشهر وأظهر³⁵.

2. 2. في الفتوى والقضاء والمناظرات:

تقلد أبو راس الفتوى والقضاء والخطابة، فضلا عن ممارسته التدريس طويلا، ممّا كان له أثره على أجوبته التي طبعتها نقول العلماء السابقين، مع التصحيح والاستدراك والتعليق عليها بما يقتضيه الحال، فقد كان صاحب حافظه قوية من جهة، ومن جهة أخرى صاحب نظر واجتهاد ومعرفة بالواقع.

³¹ هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد الرياحي، الطرابلسي الأصل، التستوري المنشأ، التونسي القرار والإقبار، كان حجة في شتى الفنون، وعلاّمة في عصره. من مؤلفاته: "ديوان خطب منبرية"، و"حاشية على الفلكي". توفي سنة 1266هـ/1850م. فتح الإله ومنته، ص128(هامش).

³² فتح الإله ومنته، ص114.

³³ إرشاد الحائر 125/3. يذكر الدكتور سعد الله في تصديده لكتاب فتح الإله ومنته (ص6) أنه إذا جُمعت آثار أبي راس ودُرست دراسة علمية فقد تضاهي أو تفوق آثار أحمد المقرئ أهمية.

³⁴ مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، ص182، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2/1980م.

³⁵ المرجع نفسه، ص181_182.

وأما تلك الأجوبة والمناظرات فقد كانت مع علماء من داخل الجزائر ومن خارجها خلال رحلاته، فأول رحلاته كانت إلى الجزائر العاصمة³⁶ فالتقى بقضاها ومفتيها وعلمائها، فأجابهم على أسئلتهم الصعبة، وظهر عليهم في مناظرتهم الكبيرة له_ التي استمرت إلى قرب الفجر_، فاعترفوا بفضله ولقبوه ب "المافظ".

وقد كان لجامع الجزائر الأعظم حصة من هذه اللقاءات والمناظرات، فكان منها سؤاله بمجلس علماء الجزائر بالجامع الأعظم سنة 1214هـ عن حكم "القهوة" و"الدخان"³⁷ _ وهي المسألة ذاتها التي تذاكر فيها مع مفتي الرملة بفلسطين_، فكان الجواب في الرملة مختصرا جامعا بينهما (القهوة والدخان) في قول واحد هو قول أبي السعود، وأما في مجلس علماء الجزائر فقد أورد أقوال عدد من العلماء في الدخان وفي القهوة، ومصدرهما وما يتعلق بهما تجاريا واجتماعيا وفقهيا، ولعلّ الحاجة استدعت هذا التفصيل زمانا ومكانا وحالا، ومن المعلوم أن الفتوى تقتضي ذلك، وتختلف بسببه شدة وتخفيفا، فهو أدري بواقع المجتمع الجزائري، وما يحفظ عليه سلامته واستقراره.

ويذكر أبو راس وفوده على نائب وهران، ولقائه بعلماء البلدة³⁸، وتذاكره في قسنطينة مع علمائها الذين جاؤوا لملاقاته بعد أن سمعوا بوجوده، وورود أسئلة عليه في تلمسان.

وأما خارج الجزائر فقد التقى في فاس بعلمائها وفقهائها، وتذاكر معهم في مسائل، وكتب بعضهم يمدح بعض كتبه، وحضر مجلس السلطان سليمان، وكان لا يخلو من العلم والعلماء، وفي تونس كان محل مشاورة عند شيخها محمد بن المحجوب فيما يُرفع إليه من النوازل، وكانت له مناظرة مع علمائها في الجامع الأعظم، فظهر عليهم، وسألوه عن أمور فقهية صعبة فأجابهم عليها بما يحفظه من نقول في شأنها، ووصل الأمر إلى حمودة باشا³⁹،

³⁶ أصبحت الجزائر عاصمة لدولة مركزية قوية بعد قدوم الأخوين عروج و شقيقه خيرالدين، وتحريرها لها من الاستعمار الأسباني، و"نشأت لأول مرة في التاريخ وإلى الأبد هذه الدولة الجزائرية بحدودها الحالية منذ ما يُقارب الخمسمائة سنة"، وقد كانت تسمى بلاد الواسطة أو المغرب الأوسط. أنظر: مقدمة محقق كتاب "مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر"، ص7.

³⁷ يذكر محقق كتاب: "فتح الإله ومنته، ص177(الهامش) أن العلماء ألفوا في تحريم الدخان وتحليله زهاء ثلاثين تأليفا.

³⁸ البلدة: مدينة قريبة من الجزائر العاصمة، تبعد عنها نحو70كم.

³⁹ هو أبو محمد حمودة بن علي بن حسين بن علي التُّركي، أحد بايات تونس في عهد الدولة العثمانية، توفي سنة 1229هـ (1814م). أنظر: فتح الإله ومنته، ص128(الهامش).

فاستدعاه وأكرمه وسأله عن أشياء عديدة، فحسده بعضهم، فدعا لهم بالمغفرة والطهارة من ذلك.

وفي مصر التقى بعلمائها وتذاكر معهم في علوم عدة، وقرأ المذاهب الفقهية على علمائها، كما اجتمع مع بعضهم بالجامع الأعظم فتناظر معهم في عدة مسائل، وامتحنوه، فاعترفوا بفضله وحفظه وعلمه.

وفي مكة اجتمع بعلمائها وفقهائها من المذاهب الأربعة، وأطال مجالسة مفتي المالكية الفقيه الحسين المغربي، والتقى بعلماء الوهابية فوقع له معهم مباحثات ومناقشات في شأن مسائل صوفية⁴⁰، فرجعوا عن بعضها بعد الاستدلال بالنصوص الشرعية.

وفي المدينة المنورة التقى بالعلماء من كل قطر، وكان له أبحاث ومناظرات معهم عدة مرّات، وتحدّث في الشام مع علمائها في مسألة من "الحبس"، فطال البحث فيها جدّاً، ثم رجعوا إلى قوله وأنصفوه، كما تناظر مع علماء وأمرء "غزة" بفلسطين في مسائل من العلم، فاعترفوا له بالعلم والفضل والحفظ.

إن الناظر فيما سبق ذكره يقف على أرجحية المذهب المالكي⁴¹ في القطر الجزائري، وأن أبا راس كان قارئاً للعلوم حيثما وجد سبيلاً لذلك، وكان يُفتي بالمذاهب الأربعة، فكان عقله يسع اختلاف العلماء في فنون المعرفة، لذلك نجده مناظراً محنكاً في مختلف العلوم، مع تقدير واحترام من يُناظرهم، ولا يستنكف عن الإفادة منهم، معترفاً لهم بفضلهم، فحاز بذلك تقديريهم وإجلالهم له، واعترافهم بفضله وعلمه، ووصفهم الحميد له، مما جعل له حضوراً علمياً قوياً وبارزاً يحفظ به جناب ما عليه من مرجعية دينية من جهة، ويكون له تأثيره في واقع الحياة الدينية للمجتمع الجزائري من خلال ترسيخ هذه المرجعية الدينية في بعدها الفقهي، وكذا بُعْدَها العقدي والتصوّفي.

⁴⁰ منها: قراءة "دليل الخيرات"، والتنسيح ب"السبحة"، ومشاهد السادة الصوفية، وهدم مباني الأولياء.

⁴¹ معظم التأليف كانت في المذهب المالكي باعتبار أنّ معظم سكان الجزائر يتبعون مذهب الإمام مالك، وبمجيء العثمانيين انتشر المذهب الحنفي، فكانت تأليف مهمة فيه، ومن جهة أخرى فإن بعض علماء الأباضية في الجزائر لهم تأليف جديرة بالدرس، وهي جزء لا يتجزأ من التراث الثقافي الجزائري. انظر: تاريخ الجزائر الثقافي 69/2.

3. أثر الجهود الفقهية للمافظ محمد أبي راس الناصر الجزائري في حفظ المرجعية الدينية في الجزائر:

المرجعية الدينية التي نقصدها هي "الجهة العلمية الموثوقة التي يرجع إليها الناس في معرفة أحكام الدين (الإسلام) وتعاليمه وإرشاداته في مختلف جوانب حياتهم"⁴².

والمقصود بالجهة العلمية أمران؛ الأول أصول المنهج العلمي المتبع في العقيدة والاجتهاد الفقهي والسلوك الأخلاقي، أي؛ مصادر المعرفة الشرعية، وأصول الاستدلال، وطرائق الاستنباط، وقواعده التقلية والعقلية، وما يستتبع ذلك من نتائج؛ كمصدرية الوحي، والأدلة والخطط التشريعية، وأصول الاعتقاد الصحيح، والمنهجية الأصولية المجمع عليها، والمذاهب الفقهية المتفرعة عن هذه المنهجية، وقواعد السلوك والتصوّف، والآخر الأشخاص أو الهيئات العلمية المضطّعة بتوظيف المنهج المذكور واستداره، أي؛ معرفة هؤلاء الأشخاص، ونصبهم من حيث الديانة والأمانة والأهلية العلمية للقيام بالوظيفة الدينية⁴³.

وأما الموثوقية فهي اطمئنان المسترشد أو المستفتي أو المستعلم عن حكم الدين في شأن من شؤون الحياة إلى الجهة أو الشخص المخبر بذلك الحكم اطمئنانا تبرأ به ذمته شرعا، وضابط ذلك أن تكون الجهة المسؤولة آمنة في الدين، مؤهلة في العلم للجواب على سؤاله، فتؤخذ الأمور عن أهلها المتخصصين، لا عن مجرد وسائل الإعلام، أو عامة الناس، فليست العبرة بكثرة الظهور أو بمجرد الشهرة أو كثرة الأتباع من العوام، أو بما يسمى جرح العلماء، وإسقاط اعتبارهم، فلا يسقط اعتبار عالم ثبتت أهليته، فالعبرة بأهل العلم المتحققين⁴⁴.

ومن هؤلاء العلماء المتحققين المحافظ أبو راس الناصر الجزائري الذي كان يستحضر أصول المنهج العلمي المتبع في العقيدة والفقهاء والتصوّف بما يحفظ على المجتمع الجزائري مرجعيته الدينية، خاصة في بُعدها الفقهي من خلال التدريس والتأليف والفتوى والقضاء والمناظرات.

⁴² نصب الأضواء والمناظر لمسألة المرجعية في الجزائر: نخبه من العلماء، ص16، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط1 سنة 2019م.

⁴³ المرجع نفسه ص16_17.

⁴⁴ المرجع نفسه ص17_18.

3. 1. في التدريس والتأليف:

بلغ أبو راس في العلم رسوخا جعل شيوخه يتنافسون في استقدامه للتدريس عندهم، فأثر شيخه المشرفي إلى أن توفي سنة (1192هـ)، فغادر أبو راس للتدريس عند شيوخ آخرين ثم منفردا.

وقد اختاره شيخه المشرفي للتدريس عنده على من هو أكبر منه من تلامذته؛ لأنه فيه النفع والقريحة، وصار يعظّمه رغم صغره.

والنفع والقريحة أمران بتلازمهما يبلغ صاحبهما من الأثر مداها، خاصة إذا كان الشيخ قدوة في علمه وسلوكه، وقد تأسى أبو راس بمنزلة شيوخه في تأثيرهم عليه، وهو ما يأمله من تدريسه لطلابه فيقول: "الشيخ عليه النفع يدور، وتكيل الأرض قدمك إليه وتخور"⁴⁵، وقد عمل عليه، فترك أثره البالغ في طلابه على كثرتهم، فكان مشرّهم الفقهي المذهب المالكي.

والناظر في قوى العمران البشري المتحكمة في نسيجه الاجتماعي العام يجد أن التعليم يعتبر من الأسس التي ترجع إليه؛ حيث يتميز بكونه عملا بنيويا تحتيا على المستوى القاعدي⁴⁶، وهو ما عمل أبو راس على بنائه في طلابه، وحفظ النسيج الاجتماعي للمجتمع بالحفاظ على مرجعيتهم الدينية، ومنها البعد الفقهي متمثلا في المذهب المالكي.

ومن هنا كان لأبي راس موقفه المعترض على الخط من شأن العلماء السابقين، حيث ردّ على الشيخ الرياحي باللّين والسمت الحسن، ودكّرهم بفضلهم وعلمهم، وما امتازوا به من مكانة عظيمة ترفع أقدارهم على مرّ العصور.

وفي ذلك دلالة على ما كان يتميز به أبو راس من لين الجانب في الردّ بالحجة، وإبداء الرأي المخالف، والموقف الذي ينبغي اتخاذه دون تشنيع أو تسفيه، وهي رؤية تربوية في تقويم الآراء، وأدب مطلوب في الخلاف، فشأن العلماء الإنصاف.

⁴⁵ فتح الإله ومنته، ص41.

⁴⁶ الفطرية بعنة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام: فريد الأنصاري، ص 39، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1 سنة 2009م.

ولاشك أن حفظ المرجعية الدينية هو حفظ لكيقونة الأمة الروحي والمعنوي، ولا نتصور ذلك إلا بحفظ كيقونة الأمة المادي من خلال حفظ الوحدة العضوية للأمة.

وقد جسد الحافظ أبو راس ذلك من خلال جهده الفقهي العملي، متأسيا بشيخه المشرفي الذي شارك في حرب وهران على عادة علماء البلاد، و"إنّ من تأمل وتتبع تراجم علماء ذلك العهد يجد الأكرثية منهم ماتوا استشهادا في حرب وهران"⁴⁷، أما أبو راس فقد عاصر الباي محمد الكبير باي معسكر التي كانت عاصمة لبايلك الغرب، وعندما سمع أثناء عودته سنة 1205هـ وهو في تونس بالحرب بين المسلمين والأسبان على وهران، فأسرع بالعودة والاشتراك في الجهاد⁴⁸، الذي تكلّل بفتح وتحرير وهران عام 1792م تحريرا نهائيا.

ولا يخفى ما في ذلك من أثر بالغ على معنويات الجند خاصة والأمة عامة، فإن "العلم للجهاد مرشد ورافد، كما أن الجهاد للعلم حارس وحافظ"⁴⁹، وقد جاوز أبو راس بمشاركته في الجهاد مسألة المفاضلة بين العلماء والشهداء⁵⁰.

وكان أبو راس يحن لعودة الأندلس إلى أحضان الأمة الإسلامية، واعتبر فتح وهران بداية لتحقيق تلك الغاية، ولعل ذلك الفتح هو الذي حمّله على أن ينظر إلى آل عثمان على أنهم ما يزالون يواصلون رسالتهم التي جاؤوا إلى شمال إفريقيا من أجلها أوائل القرن العاشر(16م)⁵¹.

وقد شارك أبو راس المهنيين للباي محمد الكبير بقصيدته السينية المشهورة، وشرحها بعدة شروح، وسمى شرحها "عجائب الأسفار"، وهو من أهم تأليفه، كما أنه دوّن رحلته الأولى والثانية التي كانت سنة 1226 في مجلد.

⁴⁷ الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعدي، 37/7، مجلد خاص بكتاب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني".

⁴⁸ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 87/1.

⁴⁹ هذا بصائر: محمد سعيد بكر، ص114، إصدار مؤسسة أحسن الأفكار للتدريب على التنمية المجتمعية، الأردن، دون تاريخ.

⁵⁰ مسألة المفاضلة بين العلماء والشهداء حققها ابن القيم بكلام متين، خلاصته أن الفضيلة فيها تابعة لتحقيق صفة الصّدّيقية، فمن تحقّق بها من العلماء أو الشهداء فهو الفاضل، وختم كلامه بقوله "فإن جرى قلم العالم بالصّدّيقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصّدّيقية، وإن سال دم الشهيد بالصّدّيقية وقطّر عليها كان أفضل من مداد العالم الذي قُصّر عنها، فأفضلهما صِدّيقهما، فإن استويا في الصّدّيقية استويا في المرتبة" -المرجع نفسه، ص115.

⁵¹ تاريخ الجزائر الثقاني، 380/2.

وقد أَلّف ما يزيد عن المائة تأليف إلا أن أهم تأليفه؛ رحلته، وتاريخه، الذين لقيوا اهتماما كبيرا من معاصريه، ثم من كبار المستشرقين الذين ترجموا كثيرا من الفصول منهما إلى الفرنسية، ونشروها في تأليف خاصة، وفي بعض المجلات ك"المجلة الإفريقية" و"المجلة الآسيوية" المشهورتين⁵².

وإلى جانب مشاركته في الجهاد للدفاع عن الأمة وحفظ كيائها، فقد كان له أثر في حفظ كيان الأمة الروحي والمعنوي من خلال التعليم والتأليف والمناظرات والفتوى والقضاء، فإن من أولويات المسلم الكبرى؛ الجهاد وطلب العلم والتعليم.

3. 2. في الفتوى والقضاء والمناظرات:

كان الحافظ أبو راس يفتي بالمذاهب الأربعة مع غلبة المذهب الحنفي والمالكي؛ فالأول هو مذهب الدولة العثمانية، والثاني هو مذهب أهل المغرب العربي، ولكن شهرته استطارت في المذهب المالكي.

وقد كان ذلك حسب السياق والمكان وما يقتضيه حال السائل، وهو في هذا يجمع بين أمرين؛ التمسك بأصل مذهبه من جهة ومراعاة المقام من جهة أخرى تماشيا مع أصول المذهب المالكي في "مراعاة الخلاف"، وكذا مقتضى الحال من باب الاستثناء، فهو المعروف بمذهبه المالكي، فقد نشأ عليه في أسرته، وبتحصيله في مرحلة الطلب.

ويشهد لذلك جملة مناقشاته مع علماء عصره، وما عُرف عنه في مرجعيته الدينية بأبعادها الثلاث؛ العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي وطريقة الجنيد في التصوّف السني، حيث ورد شعرا في مدح العلماء له بنسبته إلى هذه المرجعية، ومن ذلك قول السيد إبراهيم الرياحي:

وسلم الأمر تسليم الورى ل "أبي راس"، وِدْن مثل ما دانوا فيزدان

ثم يقول: إذا تحدّث فاسمع "مالكا" وإذا تفقه اهتر بالإعجاب "نعمان"

وما شعرت بغير "الأشعري" إذا تكلمت منه بالتوحيد أركان

ولا نظرت إلى غير "الجنيد" إذا أبصرته وله بالشوق تحنان

⁵² الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، 175/4.

ونشير هنا إلى أمرين؛ الأول أن هذا المدح صدر من عالم له وزنه وحضوره في عصره، وما يقوله يكون عن خبرته بمن يمدحه، وما يتحلى به، وما يعتقد، والآخر أن مدحه لأبي راس في هذه الأبيات بمرجعياته الدينية هدفها الإشادة بهذه المرجعية الدينية التي يشترك فيها مع أبي راس، وأن تقع موقعا حسنا من نفس الممدوح، فالمدح يكون بشيء يزينه، ويعده مفخرة عنده، وكذلك كان الحافظ أبو راس في سلوكه العلمي من انتصاره لمرجعياته الدينية في التمسك بها مع الانفتاح على المذاهب الأخرى ودرس شتى العلوم كما سبق بيانه.

وهذا كله يترك أثره في المحيطين به تأسيا به، وتماشيا مع واقع الحال فيما عليه المجتمع في سلوكه الديني المرجعي، وما دأب عليه العلماء والحكام في تثبيت أركان هذه المرجعية الدينية، وهو ما عمل عليه الحافظ أبو راس من خلال جهوده العلمية عامة والفقهية خاصة، ويستحضر في ذلك محق "المعز بن باديس" وسط القرن الخامس _ مذاهب المبتدعة من إفريقية⁵³.

ومن المعلوم أن المعز بن باديس هو الذي ثبت أركان المذهب المالكي في شمال إفريقيا في عصره، فصار مذهب الدولة والرعية، فقد "كان الغالب على أهل إفريقية السنن، ثم غلب الحنفي، فلما تولى عليها المعز بن باديس سنة 407هـ؛ حمل أهلها وأهل ما والاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي، وحسم مادة الخلاف في المذاهب، فاستمرت له الغلبة عليها وعلى سائر بلاد المغرب...".

وذكر الفاسي في "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين" أن المغاربة كلهم مالكية، إلا النادر ممن ينتحلون الأثر⁵⁴.

⁵³ فتح الإله ومنته، ص158.

⁵⁴ نظرة تاريخية في حدود المذاهب الفقهية الأربعة وانتشارها عند جمهور المسلمين: أحمد تيمور باشا، ص64، دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 سنة 1411هـ-1990م.

خاتمة: نتائج البحث واقتراحات الباحث:

من خلال هذه الدراسة نخلص إلى جملة من النتائج، نذكر منها:

- 1_ مرونة المذهب المالكي واستيعابه للمذاهب الفقهية الأخرى بالنظر لأصوله التي قام عليها، وهي أصول المذهب المديني في صورته العامة، وابتناؤه على مراعاة الخلاف في صورته الخاصة، ففي الأول يتبين استيعابه وفي الثاني مرونته، فلا يضيق بالمذاهب الأخرى، فالكمل يؤخذ منه ويُرد إلا النبي صلى الله عليه وسلم.
- 2_ تجسيد الصورة العملية للمرونة والاستيعابية في المذهب المالكي في شخصية الحافظ أبي راس الناصر الجزائري، فجمع بين سلوكه المذهبي وانفتاحه على المذاهب الأخرى؛ وهو الشأن الذي سار عليه قدوته الأول الإمام مالك في موقفه من علماء عصره؛ وشاهد ذلك مناظراته ومراسلاته وسلوكه مع الحكّام في تعميم موطئه.
- 3_ تحصيل العلوم بتبادل المواقع؛ فيكون شيخا في علم وطالبا في علم آخر، وفي هذه الحالة تجمع بينهما المشيخة والطلب، ولم يستنكف أبو راس وعلماء عصره أن يجمعوا بينهما في جهودهم العلمية تحصيلًا وتدريسًا مهما بلغت منزلتهم العلمية .
- 4_ حفظ المرجعية الدينية تنطلق من الثقافة المحلية التي ينبغي استحضرها سلوكا على الدوام للتمييز بما عليه المجتمع من خصوصيات تختلف عن المجتمعات الأخرى، وتعمل على إحداث التوازن النفسي للفرد والتماسك الاجتماعي للمجتمع، مع استجماع أسباب الثقافة العامة من باب الإثراء والتعارف والتواصل والتنافس وشحذ الأذهان.
- 5_ يستدعي حفظ المرجعية الدينية القيام بواجب الدفاع عن الوطن، فذلك أساسها المادي، ويستكمل بأساسها المعنوي القائم على أصل الدين الإسلامي، ويبرز سلوكا فيما استقر عليه العمل والتدين فقها على مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك، وهو مذهب أهل المدينة القائم على صحة أصوله الشرعية، وهو ما استقر عليه العمل في المجتمع الجزائري طيلة قرون من الزمن.

ومما يقترحه الباحث في هذا المقام؛ أن يتوجه أهل العلم والصلاح لتجلية تراث علماء الجزائر، وإبراز عمق هذا التراث وغناه في الحفاظ على المرجعية الدينية للجزائر، وبذ كل ما يتعارض مع أصولها، كما كان شأن أبي راس وعلماء الغرب الإسلامي في ردودهم على الوهابية، خاصة وقد وفدت علينا منازع منتسبة للشريعة، سمّتها عدم المنهج المذهبي بزعم الاستقلال الاجتهادي، نتجت عنها جملة من المفاسد، منها؛ الطعن في العلماء، ومصادمة ما استقر في المجتمع الجزائري من مذهب فقهي وخصوصيات وطنية.

قائمة المصادر والمراجع:

- الناصر أ. ر. . (1986). فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- بكر م. س. . هذا بصائر. الأردن: إصدار مؤسسة أحسن الأفكار للتدريب على التنمية المجتمعية.
- سعد الله أ. ا. (1981). تاريخ الجزائر الثقافي. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- فقيقي م. ا. (2021). قراءة في مناظرة الشيخ أبي راس الناصري الجزائري لبعض علماء الوهابية في موسم حج عام 1811م. مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية, 11(2), 106-128.
- الأنصاري ف. (2009). الفطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام (ط1). القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- حسناوي ا. (2015). الحافظ أبو راس الناصري الجزائري وأجوبته الفقهية من خلال كتابه فتح الإله ومنته، دراسة فقهية في المنهج والمرجعية. مجلة الشريعة والاقتصاد, 4(7), 349-390.
- بلشير . ع. (2020). قراءة في تراث الشيخ أبي راس الناصري "المخطوط" كتاب "الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى" نموذجاً. المجلة الجزائرية للمخطوطات (عدد خاص), 16, 74-101.
- رزاق ح. (2011). منهجية الشيخ الإمام أبي راس الناصري في الفتاوى من خلال كتابه "الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والفتاوى". مجلة الحضارة الإسلامية, 12(1), 111-135.
- السليمان أ. (1989). تاريخ مدينة الجزائر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- نخبة من العلماء ن. م. ا. (2019). نصب الأضواء والمنائر لمسألة المرجعية في الجزائر (ط1). الجزائر: شركة الأصالة للنشر.
- تيمور أ. (1990). نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة وانتشارها عند جمهور المسلمين (ط1). بيروت: دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع.
- دويب ع. ا. (2013). الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي (ط1). الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- الزهار أ. ا. (1980). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- شاوش م. . & بن حمدان . ا. . (2011). إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.
- سعد الله أ. ا. . (2007). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الثقافي. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.